اذا افتخرت اهل اليسار بمالهم ففخرهمُ بالفضل والعمل البرّ
اطلتُ وقوفي في المنارة باحثاً فضاق مجال النظم عن كرّة الفكر
وما كان عهدي بالقريض يخونني ولكن نطاقُ الوصف اوسع من شعري

مرآة الحسناء

ملحق بديوان المرحوم فرنسيس مرّاش
نبذة للاب لويس شيخو اليسوعي

فرنسيس بن فتح الله المرّاش احد نوابغ الشعراء الحلبيين في القرن المنصرم وقد ذكرناهُ مع غيره من اسرته الكريمة في كتابنا تاريخ الآداب العربيّة في القرن التاسع عشر وعدّدنا تآليفهُ (ج ١ ص ٤١). ومن كتبه التي نُشرت بالطبع ديوانهُ المدعو مرآة الحسناء الذي طُبع في بيروت سنة ١٨٧٢ في مطبعة المعارف بهمّة احد ادباء الكتبيين المسلمين احمد وهبي الحلبيّ. فعرف بهِ الشعراء ما آتاهُ الله صاحبهُ من القريحة الوقّادة لنظم القريض الحسن والشعر الرائق الذي قلّما فاقهُ فيهِ معاصروهُ لاسيّما النصارى اللهمّ الّا بعض الافراد كالشيخ ناصيف اليازجيّ وبطرس كرامه. ولذلك اطراه شعراء عصرهِ من مسلمين ونصارى فقال الشيخ بكر الزهري عنهُ مؤرّخاً:

هو شاعرُ الدنيا بديع زمانها انسانُ عين خلاصة الفصحاء
فلهُ من الشعر الحلال قصائدٌ كقلائد نُظمت من الجوزاء
لا عيب فيهِ غير انّ لسانهُ ينبوع كلّ بديعة غرّاء
عجباً فارّخ كلّما طلع اليها هذا جمال المرأة الحسناء

والديوان المطبوع غزير المادّة وافر القصائد البالغ مجموعها ٣٤٨ صفحة من قطع الثمن. وهو اليوم قليل الوجود. وقد وقعت في يدنا نسخةٌ منهُ مخطوطة قد بيعت مؤخّراً في بيروت فاشتراها جناب الاديب الهمام يوسف افندي ليان سركيس تكرّم علينا بالنظر فيها وسمح لنا بالكتابة عنها في المشرق ان استصوبنا الامر. فبعد المراجعة رأينا انهُ لا يخلو تعريفها من الافادة

فهذه النسخة المخطوطة صغيرة الحجم متقنة الكتابة ومجلّدة بجلد احمر منقوش

بالذهب يبلغ عدد صفحاتها ٢٤٧ صفحة الّا انّهُ قد نُزع منها كرّاس (٦٢ — ٧١) من القصائد الدالّيـة وخطُّها نسخيّ ناعم في غاية الحسن والضبط تحتوي كل صفحة منهُ ١٨ بيتاً . واسم الناظم لم يُرَ في صدر الكتاب بل لم يُذكر في اثنائهِ ولولا اشارات خفيفة في بعض القصائد لما عرفنا ناظمها . وكذلك اسم الديوان وتاريخ كتابتهِ ليسا بمدوَّنين هناك وكأن الشاعر لم يعوّل بعد على طبعهِ فلم يختر لهُ اسماً يوافقهُ

وقد قابلنا ما تحتويهِ النسخة الخطيَّة من المنظومات مع الديوان المطبوع فاذا هناك عدَّة قصائد او مقطعات لم تُنشر بالطبع فلم نعلم سبب الضرب عنها واما ناظمها او المتولي لطبع الديوان لم يستحسنها فعدل عن نشرها واستعاض عنها بقصائد اخرى تُرى في النسخة المطبوعة لا ذكر لهـا في المخطوطة او يكون جامع الديوان المخطوط احد اصحاب الشاعر جمع هذه المنظومات من اوراق بعد وفاتهِ سنة ١٨٧٣ فان فرنسيس مرّاش كان في اواخر عمرهِ مكفوف البصر فمن المحتمل ان تكون هذه الاوراق فُقدت منهُ فوجدت في تركتهِ بعد موتهِ وكتبت في هذه النسخة والله اعلم

وعلى كلّ حال قد احببنا ان ننشر هنا اجود هـذه القصائد لئلا تأخذها يد الضياع . فممّا ورد لفرنسيس المرّاش من الشعر في باب الهمزة قولهُ (ص ١١) في مدح بعض مواطنيهِ المسمّى رزق الله يشكرهُ عن نعمةٍ نالها :

غورُ الصنيع بساعدِ الكُبَراء وقوى الضعيف بقوَّةِ العظماء
لولا ضياء الشمس في جنّاتِ السما لم يأتِ جرمُ البدر بالاضواء
ذو المأثر من راجيهِ ليلَ بمُرتضى واخو المروّة ملجأ الضعفـاء
ما كنتَ ممّن حاز كلَّ سيادةٍ لولا الذي قد حاز كلَّ ثناء
اعني بـذاك الشامخ رزق الله مَن بتوالـهِ يعلو على الانواء
الفاضل الهادي الشهامة من غدا تاجَ الكرامِ وعمّةَ العقلاء
قد جئتُ مفتخرًا بوصف صفاتهِ مدحُ الاكارمِ فخرةُ الشعراء
يا أيُّها الغطرُ الندي بما الهدى شمسٌ وبعثي شبهُ الجوزاء
ببحور فضلك قد غرقتُ فان أقُم عمري بشكرك لا يقوم وفائي
فلك المدائح والثنا والشكرُ ما لثمتْ خدودَ الورد ريحُ صباء

ومن نظمهِ في قافية الباء بيتان (١٥) كتبهما على كيس تبغ :

اذا فاح عرفُ المسك يوماً بمحفلٍ فانّ شذا هـذا الدخان لأطيبُ

سقى الله ارضًا انبتتهُ مع الصفا وغادرت الاكدار بالنار تُلهبُ

ولم نجد في الديوان المطبوع في قافية الباء قصيدةً انشدهـا سنة ١٨٥٦ في مدح السلطان عبد المجيد اوَّلها قوله:

علتْ فلكَ المجـد العظيم جوانبُهْ فحلَّتْ امانيهِ وسارت مراكبُهْ
مليكٌ يصيبُ النائباتِ بلوغها اذا ما بدت كتَّابُهُ وكتائبُهْ
مجيـدٌ حليمٌ عادلٌ ذو عناية حميدٌ حكيمٌ باسلٌ عزَّ جانبُهْ

ومنها: اذا زان افقَ الملكِ كوكبُ نفسهِ وليس يزينُ الافقَ الا كواكبُهْ
وقد طاب الفوز الكبير فنالهُ على قدر المطلوب قد جاء طالبُهْ
غيورٌ قليبُ الخافقين مهابةً اذا اعتكرت اعدتهُ وقوانبُهْ
ومذ لاح نور العدل منهُ انجلى به ظلام الردى والظلمُ عارت غياهبُهْ
سرت نسماتُ الأمن منهُ فأنعشت قلوبَ الورى والدهر طابت مشاربُهْ
فيا ربِّ صُنْهُ ما بدا الصبحُ باسمًا على الدور والديجورُ شُقَّت جلاببُهْ

وقال من قافية التاء في تاريخ زفاف المسمى دانيال (ص ٣٥):

بلالُ الانس والافراح قد صدحت في حيِّكم وزهور البشر قد نفحتْ
وكوكبُ السعد من برج الهناء بدت انوارهُ فجلتْ ليل الاسى ونحتْ
هُنِّئتمُ بزفاف كالجنان زهـا زفَّت به حسبُ الشهباء وانشرحتْ
عرسٌ تموَّج بحر المكرمات به وعن سماهُ نجوم المجد ما نزحتْ
اقول حين ارى التـاريخ تمَّ به لدانيال قلوبُ الشعب كم فرحتْ

وقال يتشوَّق الى صديقهِ نصر الله وفيهِ تضمين اسمهِ (ص ٣٦):

بعد الاحبَّـة لا يزال عذابًا قلبي بنـار الشوق والزفراتِ
فانا القتيلُ ومنْ يبشرنا تُرى بورود نصر الله فهو حيـاتي

ومن نظمهِ في باب قافية الثاء (ص ٣٧) يهجو رجلًا ورث مالًا فتشامخ:

ان تنـلْ تالدًا يقولوا وريثُ او تُصب طارفًا يقولوا حديثُ
انما الفضل لاذي يربحُ الامـوال بالجـد فالوريثُ خبيثُ
حدِّثوني عن احمقٍ انهُ قطُّ م الـنا بالغنـاء ويشي الحديثُ
ايها النمرُ لستَ تنتمُ بالما ل سناءً قالَ شيءٌ غثيثُ
ان ورثتَ الاموال مذ خذل الدهـرُ فما الفضلُ والتشمي موروثُ
انتَ لولا الميراثُ ما كنت تسوى درهمًا للثرا فمتْ يا وريثُ
ان تَغُثْكَ الاموالُ من سطوة الفقـر فمن سطوة الغنى من يغيثُ
والغنى لم يُفِدْكَ اذ انت عنا جٌ الى العقل وهو عنكَ نئيثُ (كذا)

ولهُ في قافية الحاء تاريخ زفاف المسمَّى عبد الله (ص ٤٥):

بزفاف عبد الله قد تمّ الفرحْ وجلا سنا الزّهراء دَيجور الترحْ
عرسٌ به صدرُ الزمان قد انشرحْ فصفا ومن احكامهِ البؤس انتزحْ
تُثرى اليهِ اقبلتْ غرُرُ المُنحْ وبروضهِ زهر السعادة قد نفحْ
ناديتُ اذ نالَ الهناء وما برحْ فافهُ تبيانَ التواريخ منحْ
بزفاف عبد الله قد تمّ الفرحْ ١٢٧٣ (١٨٥٦)

وقال في من يزخرف القول ولا يكترث للمعنى (ص ٤٥):

يا من يزخرف قولًا علَّ يُفحمنا به ألا دعْ كلامًا غير ممدوح
فزُخرفُ القولِ في ما لا مقامَ لهُ كثوب وشيٍ على جسمٍ بلا روح

ولهُ تهنئة في مولود (من قافية النون ص ٤٩) سنة ١٨٥٠:

لكمُ الهناء ولي المسرّةُ سرمدا في خير مولودٍ بحيّكمُ بدا
قد جاء ذخرًا للرجال وزينة بين البشائر والملا عزًّا غدا
لا زال نورُ المجد فوق سريره والبشرُ منجبًا ويلو الفرقدا
شهرٍ من فيهِ بتاريخٍ ارى شمس السرور ببرج يوم اسعدا

وقال هذه الزهريّة (ص ٥٨):

طابَ الصّبوحُ فدعْ جوار المرفدِ واعضِ الى الروض المذيب المورد
هلّا رأيت الليل ولّى هاربًا والفجر جاء على جوادٍ ابرد
وغدا بياض الصبح ابيضّ نورهِ ورمى به عتق الظلام الاسود
فذر الهموم على الفراش وسر بنا نحو الرياض تفزّ بعيشٍ ارغد
حيثُ الصبا سقتِ الرّبى خمر الندى والورقُ ابدت نغمةَ الصوت الشدي
والطلّ لاح على الشقيق كانهُ عرقُ الحياء على خدود المُرّد
والزهر بين مرصّعٍ ومنضّدٍ وانهر بين مدرّعٍ ومزرّدِ
والنور في تلك الحمائل قد حكى دررًا تناثرَ على بساطٍ زبرجدِ
ثغر الاقاح هناك يبسم كلما يبكي الغمامُ وما لهُ من منجدِ
غنّ من روض انيقٍ خلتهُ مغنًى يزان بكلّ نقشٍ جيّدِ
صدحت طيور الانس فيهِ والحمى صفا من الاكدار والبؤس الردي
مغنًى غدا للظرف ظرفًا اذ حوى مغنًى اليهِ سوى الهنا لم يُسندِ
وحكى كناسًا في كثيبٍ حولهُ يرعى وينثنا كلّ ظبيٍ اغيدِ
فلنسقهِ الله انتشى وبنصرهِ وسد الهنا وبسعدهِ لم يُفقدِ
وبهِ السرور بدا فقلتُ مؤرخًا الضيمُ في هذا الحمى لم يوجدِ

وقال في قافية الراء في مدح بعض ادباء الشأن من قصيدة (ص ٨١):

غصنٌ بروضِ المكرمات قد انتشى ولقد غنا في ذروة الاحرارِ

اوصافهُ راقت فأبدت للورى صور الجلال فحيَّرت افكاري
ريحانهُ الارواح ذكرُ خلالهِ تلك التي تصفو عن الاكدارِ
حسنُ السجايا ذو فعال ما حوت علاً فقد سلمت عن الاوضارِ
لا عيبَ فيهِ غير ان خصالهُ بالعقل تفعلُ فعلَ كأسِ عقارِ

ولهُ في مدح جبرائيل دلّال من قصيدة (١٠٢):

ما روضةٌ ظلمت ايدي النسيم لها عقدًا من النَّور اضحى نزهة البَصَرِ
وافترَّ ثغر الأقاحي والنصونُ بدتْ بالرقص لمَّا شدا القمريُّ في الشجرِ
يومًا بأحسنَ مرأى من محاسن مَنْ تُجلى بيشر ابن دلّالٍ على البَشَرِ
من لم يزل بخلوص الودّ مشتغلًا ومن غدا معهد الالطافِ والغُررِ
ندبٌ حزومٌ اغرٌّ فاضلٌ فطنٌ صافي الصفات سليم القلب والفكر
تلقاهُ شيخًا كبيرًا بالمعارف اذ يروي حديثًا وفي العشرين لم يصرِ
سادت شمائلهُ حادت اناملهُ كادت فضائلهُ تعلو على الزُّهرِ
حسَّادهُ ذبت قصَّادهُ غنيت ودَّادهُ رَويت من كفّهِ الهمرِ
يرعى الاخاء بحالَيْ شدَّةٍ ورخًا ويضدُّ الصحب في عسرٍ وفي يسرِ
افاده اللهُ في سنّ الحداثة ما لم يستفد بعضهُ كهلٌ مدى العُمُرِ

ومما لم يرَ ايضًا في ديوانهِ المطبوع قصيدة قالها في مدح رشيد باشا لمَّا قدم حلب كشير (ص ١٠٥) اولها:

ما لوجه النهار يشرقُ يشرا وعلى كلِّ يُقدم نذرا

الى ان قال:

الرشيد السامي محمَّد من قد راح يعلو على الكواكب قدرا
من على الجَوْر شنَّ غارة عدلٍ فجباهُ القديرُ فتحًا ونصرا
فاذا جاء إثرهُ الدهر بالسرَّاء والدهر لا يجيء بِرًّا
كُسيت في قدومهِ حلبُ ثو بَ نعيمٍ وجاءها الخيرُ تترى
ونعمت بلابلُ الانس في دو حِ منانيهِ والسلامُ استقرَّا
مدَّ كفًّا بفيضُ بحر نوالٍ فهو حلوٌ وقطُّ لم يُبدِ جَزْرًا
في رياض الاحكام قد غرس الحقَّ م واجرى من العدالة نهرا
يهد الحكم بالسواء وقد أنـ ـسج طرقَ الامان برًّا وبحرا
كم وكم حقَّ شكرُنا للمليكِ قد هدانا هذا الوزير الاغرّا
هو عبدُ المجيد ذو النعم واللا ءِ على الناس ظاهنَّ اسجنرّا
من غدا في سما المعالك بدرًا وبجيد الزمان اصبح درًّا
فاسألوا الله يا عبادُ فهذا حظُّكم أن يطول قدرًا وعمرا

ومن ظريف شعره غير المطبوع في قافية السين قوله يمدح مطران حلب الطيب الذكر بولس حاتم مؤدّبهُ سابقاً (ص ١٠٩):

العقلُ افقٌ والعلومُ شموسُ والشعرُ روضٌ والمعاني غروسُ
سبحان من اهدى العقول خفيّة يُجلى بها المعقولُ والمحسوسُ
والعلم مصباح يُنير وكم بهِ قُدى الى سُبُل الرشاد نفوسُ
ما كلّ ذي علم كآرسطو ولا كلّ امرئ بالطبّ جالينوسُ
ما مرّ دهرٌ خالياً من مفردٍ فيهِ يجلباب العلوم يجيسُ
واليوم قمتُ بمدح من في دهرهِ اضحى فريدًا شخصهُ المأنوسُ
الاسقف الراعي الامين اخو الهدى السيّد النحريرُ والقريسُ
من في رياض العقل منهُ يانعٌ غرسُ المعارف والذكا مغروسُ
آراؤهُ شهبُ الحقائق والهدى ولسانهُ الناموسُ والقاموسُ
متسربلٌ ثوب الطهارة والتُقى ما شانَ حسنَ نقائهِ تدنيسُ
يا ايها الحبرُ المعظَّم شأنهُ لا شكَّ انَّ الشان منك نفيسُ
ان قمتُ اهديك المديح فانني اهديك مالك ايها القدّوسُ
اوليتني خيرًا وقد فقّهتني فانا بروض الفضل منك جابسُ
فلك المديح مضاعفًا والشكرُ ما لاحت بآفاق السماء شموسُ

ولهُ في قافية السين موشح رُوي قسمٌ منهُ في الديوان (ص ١٥٣) ولم تُذكر ادوارهُ الاخيرة في مدح المسمّى نعمة الله. ومن قصائدهِ اللاميّة الحسنة رثا بها قالهُ في والدهِ وكان توفي في الغربة (ص ١٤٤) هذه بعض ابياتهِ:

يا روح ان نفدت دموعي سيلي بدمي وبا قلبي التهب خليلي
هل ألمّ بنا فليس دوا لهُ غير اتّقاد حشًى وطول عويلِ
بي فقد والدنا الذي لم يبقِ في احدٍ فؤادًا ليس بالمشمولِ
مردٌ قضى والفضلُ اجمالٌ بهِ والموتُ كم يسعى لنقص فضيلِ
أبلذ بعدك بالنوى عيشٌ لنا ما العيش بعد نواك غير فضولِ
ان لم يكن رسلٌ اليك ليشرحوا حالي فني الروحُ خيرُ رسولِ
ودّعتني قبل الرحيل ولم اكن ادري الذي سيكون بعد رحيلِ
يا ليت كنّا حول جسمك ركّنًا لتبرّك كبني اسرائيلِ
ابقيت بالارواح منّا حسرةً تزدادُ ما زاد المدى بالطولِ
بالارض تنوحُ مذ نأيت وبالسما للقائك الاملاكُ في عليلِ

ولهُ في قافية اللام قصيدة طويلة (ص ١٥٠) اجاب فيها احد العلماء على لُغز في العين ختمها بقوله:

فانزك عينٌ والعيون كثيرة أيا من غدا اكليل تاج الافاضلِ

وفيها ايضاً هجو شيخ جاهل قابل بينه وبين شيخ فاضل فقال (ص ١٥٢):

وما شيخٌ طويل الذقن كهلٌ وليس لهُ كما الصبيان عقلُ
قبيحٌ ماكرٌ برمٌ مُضلٌ شحيح فاجرٌ غمٌ عُتلُ
تراءى في ثياب الصدق لكن لهُ بذيول ثوب الكذب رفلُ
لقد شابت ذوائبهُ فشبَّت قباحتهُ فذا شيخٌ وطفلُ
لعاهُ الله من غرٍ جهولٍ لهُ وجهٌ لصفع الكفّ اهلُ
ملكتُ هجاءهُ عجزاً ولكن بمدح اخي الفضائل لا املُ
كثير الودّ ذو طبع سليمٍ كريمٌ ماجدٌ ندبٌ أجلُ
فكم شخصت عيون المجد فيهِ وعاد بهِ لسان الحمد يتلو

وفي هذا الباب لاميَّة في ١٩ بيتاً قالها في مدح المسيو جوفروا كاشلير دولة قرنصة في حلب وكان نال لهُ ان يكون تحت حماية دولتهِ وانقذهُ من جور لحق بهِ (ص ١٥٣) وهذه القصيدة روي منها في الديوان (ص ٢١٨) سبعة ابيات فقط ولم يُذكر فيها الممدوح وسبب المدح. فمما قال فيها:

والمرء لا ينفكُّ عن مثلٍ لهُ لكن لمن ارجوهُ ليس مثيلُ
اعني بذلك جفرُوا فخرَ الملا مَن قد صفت في وقتهِ الاحوالُ
من سيكم نلنا الخلاص من العدى وبنونكم طالت لنا اذيالُ
قد راق مدحي في جميل فعالكم والمدحُ في اهل الجميلِ جمالُ

كذلك ورد في هذا الباب في النسخة المخطوطة (ص ١٥٦) مدح الامير بشير احمد في لبنان لم يُرَ منهُ في الديوان (ص ٢٢٠). الا نصفهُ وسكت هناك عن الممدوح كقولهِ متخلصاً من النزل الى المدح:

فلا حسنُ التخلُّص منكِ الّا بمدح امير لبنانَ الفضيلِ
اميرٌ امجدٌ شهمٌ بحبرٌ خطيرٌ احمدٌ سامي الحصولِ
رفيعُ ذرًى اتى الدنيا سليماً بجيلٍ قد زرى في كل جيلِ
يلوحُ بهالة الافضال بدرًا ويرفلُ من كمالٍ في ذيولِ
لقد وفرت بحورُ الجود منهُ فليس لنا سواهُ من خليلِ
غدا بسماء لبنانٍ شهاباً لهُ بيروجهِ شرف الحلولِ

وممَّا لم يُرَ لهُ في قافية الميم قصيدة مدح فيها احد بني المدوَّر وكان انعم على بعض اصحابهِ فاقترح هذا عليهِ شكرهُ. اولها:

بشرى الكئيب بما بهِ يتنعَّمُ فقد انجلى عنهُ المُصابُ المؤلمُ

ولهُ في قافية النون وصف لجريدة كانت تُدعى المشتري كانت تُطبع في باريس ولعلَّ متولي طبع الديوان اضرب عنها لسبب سياسي (ص ١٨٦) منها :

لِيَ عين تظلُّ جنحَ الدياجي ترقب المشتري فيا سَعْدَ عيني
كوكبٌ قد غدت اشمِّنُهُ اخبا رُ صدقٍ ما شاجا من مَينِ
آنَ القُرب قد بدا ولِلُقيا هُ غدا الشرق باسط الراحتينِ
يرشد الناس للتمدُّن والتهذ يب فهو الآتي من النوعين
فيهِ شملُ الاخبار يحكي الثريا فاليهِ يُشار بالكفَّينِ

وكتب على كيس دخان :

إذا اصابك همٌّ مثلُ نحو بنت الدخانِ
وان يَضِقْ لك صدرٌ يُفرَّجُ بهذا الدخانِ

وفي الديوان المطبوع (ص ٣١٧) القصيدة التي قالها فرنسيس مرَّاش في مدح الشيخ ناصيف اليازجي . الا انهُ لم يرو جواب الشيخ عليها وهذه الابيات لم نجدها في ما طبع من اشعارهِ ولذلك احببنا ان نثبتها هنا :

دارُ التي شطَّ عنكَ مهدُها قريبةٌ والنزارُ يُبعدُها
وحبَّذا بعد ما يُرام عن النفس التي لا تنالهُ يدُها
تلك الفتاةُ التي يشيبُ لها عن فيئةِ العاشقين امردُها
مقصورةٌ في الخيام مقلتُها يقطعُ بيضَ الصفاح أسودُها
رخيمةُ النطق ضمَّ مبسمُها مثل الذي ضمَّهُ مقلَّدُها
كأنَّ ذاك الحديثَ قافيةٌ من ابن مرَّاشَ قام ينشدها
ذاك الهلال الذي يلوحُ بهِ نور البدور الذي يسدِّدها
غصنٌ نشا في الرياض مقتبلًا والدوحُ من مثل ذاك مولدها
إفادهُ الله في حداثتهِ مواهبًا لم يزل يجدِّدها
إقلامهُ كالسيوف ماضيةٌ مرقومة الشانِ اذ يجرِّدها
مواهبٌ يشهد العدوّ لها برغمهِ والصديق يحمدُها
قامت تخوضُ الظلامَ طالبةً صبحًا الى ضوئهِ يردِّدها
لله في الخلق حكمةٌ سترت ونعمةٌ لا يغيضُ موردها
من كان يبغي دوامَ نعمتهِ فلا يكن في الزمانِ يجحدها

وفي هذه النسخة المخطوطة غير الذي رويناه وانَّا اوردنا ما وجدنا فيهِ افادة ويشهد للشاعر بجودة القريحة وذكاء القلب فنقف عند هذا الحدّ